2003-04-13-2001-2

ملف

١٣ نيسان ١٩٧٥-١٣ نيسان ٢٠٠٣

الحرب انتهت لكن السلم لم يبدأ

في لبنان نعيش يوميا تراكما للتباينات السياسية والطائفية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ونغلب القضايا والشؤون الخاصة والانتماءات الاولية على المصلحة العامة والشأن العام، الى ضيق مساحة الديموقراطية وتعطيل لغة الحوار وتغليب فئة سياسية على اخرى ومزايدة وطنية وتخوين وفتح ملفات. لذا ثمة سؤالان اساسيان يطرحان: هل انتهت الحرب فعلا في لبنان ام ثمة ظواهر تدلّ على استمرارها حتى لو سكت المدفع؟ وهل هناك خوف من اعادة انتاجها؟

من ذاكرة الحرب المصوّرة

في مقاربة سياسية للموضوع، يعتبر عضو لقاء "قرنة شهوان" سمير فرنجيه انه على مستوى المجتمع الاهلي والمدني، ثمة شعور ان الحرب انتهت "بمعنى ان الناس يعيشون مع بعضهم بعضا، كما ان لفتجم تغيرت. مثلا: ما عدنا نسمع كلمة بيروت الشرقية والغربية، كما ان مسالة انفصال المجموعات اللبنانية عن بعضها بعضا اصبحت من الماضي. لكن ما نعانيه تحديدا ان هذه السلطة القائمة على بقايا الحرب هي التي تولد روح الحرب في المجتمع عبر خطوات عدة، ابرزها تصنيف الناس بين رابح وخاسر، مما يتناقض مع مبدأ اتفاق الطائف. كما انها "تبخّ انقسامات الحرب عبر تطبيقها الانتقائي لمبدأ العفو وادخال البعض الى السجن وابقاء آخرين ليس فقط خارج السجن بل في السلطة ومستفيدين من قانون العفو. كما انها تهدد المعارضة دائما بفتح الملفات وهي ملفات الحرب. اي انه يوجد استحضار دائم للحرب في الحياة السياسية اللبنانية. اضافة الى الابقاء على الحالة القائمة ومنع اي تغيير". ويعتبر فرنجيه ان الحالة التي نعيشها منذ ١٩٩٠ الى اليوم هي "حرب باردة تغذيها السلطة وتبقيها لتبرير تقاعسها، وخصوصا انها اتت الى الحكم منتصرة، اذ ان اجواء الحرب والسلم لم تستتب بعد، لذا هي تبرّر تقاعسها الدائم". ويؤكد فرنجيه ان هذا الجو منع اللبنانيين من اجراء مقاربة هادئة لمسالة الحرب لاستخلاص الدروس والعبر من اجل اعادة بناء البلد من جديد فاذا فتح احد ما اليوم ملف الحرب يظهر وكأنه يستعمله ضد خصومه السياسيين".

من ناحيته، يرى الباحث السياسي المحامي سليمان تقي الدين ان الصراع السياسي في لبنان ما زال مستمرا رغم قيام تسوية تاريخية وطنية اوقفت الحرب "لكن نجد في الخطاب السياسي الحالي بعض عناوين كانت في اساس اندلاع الحرب في لبنان. كما نجد ان بعض القوى ما زالت تتخذ مواقف وتتغاطى في الصراع السياسي بمنطق صراعات الحرب عينها. والاهم ان النظام السياسي الذي نشأ بعد الطائف والقوى التي تحكمت فيه ما زالت تمارس منطق الغلبة السياسية، وهذا يعني احتمال تغذية الانقسام اللبناني الى حد بعيد". ويلحظ تقي الدين ان تجربة السلم الاهلي لم تساهم حتى الآن في ازالة كل الحدود وفي تنمية العلاقات المشتركة بين الجماعات الاهلية المختلفة، علما انه "كان يفترض باتفاق الطائف ان يحقق هذا الامر، خصوصا عبر مجموعة الاصلاحات السياسية المتعددة والمتشعبة وفي مقدمها نظام انتخابي تمثيلي حقيقي وتجديد في الديموقراطية اللبنانية. لكنّ ممارسات اهل النظام عطّلت هذه الاصلاحات وساهمت في تجويفها واخذت الحياة السياسية تتجه الى ارساء نظام يقوم على غلبة بعض القوى السياسية، مما ادى الى عدم تجديد الحياة السياسية في لبنان ومنع اطلاق حيوية المجتمع المدني في اعادة تكوين ركائز الوحدة الوطنية اللبنانية التي تشكل الدولة مرآتها الجامعة".

اربع ثغر

الدكتور انطوان مسرّه (منسق الابحاث في "المؤسسة اللبنانية للسلم الاهلي الدائم" ورئيس "الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية") يشير الى وجود اربع ثغر يعانيها لبنان بعد ١٣ عاما على انتهاء الحروب، هي: "الثقافة المدنية والتاريخ، اذ تحولت البرامج الجديدة في التربية المدنية والتاريخ، والتي صدرت كثمرة وفاق، مجرد عملية تقليدية بيروقراطية وادارية. واصبحت برامج التاريخ عمليا غير قابلة التطبيق بسبب عدم اعتماد مبدأ المشاركة في وضعها والتعريف بها وتفسير روحيتها ومجالات الابداع التي تتطلبها، وثمة سؤال منهجي واساسي الى جميع المؤرخين: هل نتعلم من التاريخ او في التاريخ أي من تكرار تجارب الماضي؟ ان مقولة التاريخ يعيد نفسه خاطئة، لانه لا يعيد نفسه إلا عند الشعوب المتخلفة التي تتعلم من التاريخ. لذا نحن في حاجة الى مؤرخين محاسبين يجرون جردة للكلفة والمنافع".

ولناحية الثقافة الميثاقية يرى مسرة ان الحرب في لبنان في جانبها الاهلي بدأت بقرار العزل، ولا يعني ذلك اتهام فريق، لكن كل عزل يثير المخاوف "واليوم ثمة اجماع على القضايا الاساسية المشتركة وعدول عن السجالات الكيانية الثنائية (لبنانية/عروبة، انعزالية/تقدمية، طائفية/علمانية...) انسجاما مع مقدمة الدستور المعدل: "لبنان وطن نهائي لجميع ابنائه". لكن هذا الاجماع لا يتظهر عبر المشاركة وتعميم الثقة وهما ركيزة الشرعية بالمعنى الاجتماعي، بحيث لم يحصل انتقال من البحث الكياني الى البحث في السياسات، اي كيف أكون اكثر لبنانية وعروبة ووطنية في المجال العام؟".

أما الثغرة الثالثة فهي التطييف في مظاهر عدة، "اي وجود استغلال طائفي وطرح قضايا عامة ومعاناة مشتركة من منطلق طوائفي واصطناع انقسامات وتطييف اوضاع اقتصادية واجتماعية، وتخوين وتوجيه اتهامات ضد طوائف في قضايا عامة ومشتركة. هكذا يحصل تضخيم لبعض التصريحات تليها ردود، وردود على الردود، بحيث ينساق الموضوع خارج اطاره الموضوعي. ويلاحَظ في كل فترة استنفار طائفي جديد، وخصوصا ان الاحزاب لم تبلور خطابا جديدا. علما ان لغة الحوار تفترض مناعة تجاه أشكال الاستدراج المختلفة منعا للدخول الى الملعب الطائفي لتعطيل البحث الجدي والحلول".

ويعتبر مسرّة اخيرا ان مرض انعدام الثقة ينتاب المجتمع السياسي اللبناني ويعوق الاعمار والتنمية والاستثمار واستعادة أمل اللبنانيين، وخصوصا الشباب، بوطنهم. كما يزداد الشعور العام بالعجز وبالتالي انهيار ثقة اللبنانيين بانفسهم وبامكاناتهم وبمن يتولى ادارة شؤونهم العامة "فاستفحال هذا المرض أخطر من انعكاسات أزمة الشرق الاوسط على لبنان والحرب على العراق والوضع الاقليمي العربي والمديونية العامة، لانه يقضي على الصمود والنهوض والاعمار. فالثقة هي المفتاح لتحريك القدرات البشرية، وليست مفهوما يقتصر على العلاقات الفردية والحميمة بين الناس، وهي مفهوم سياسي واجتماعي واقتصادي وتنموي تنبع منه المحركات الانسانية الاخرى". ويرى ان المسؤولين السياسيين والباحثين لم ينكبوا على دراسة هذه الظاهرة لتشخيصها ومعالجتها خارج مقولات "الاحباط" و"الوضع الاقليمي" و"المديونية العامة"، وخصوصا ان اللبنانيين مروا بين ١٩٧٥ و١٩٨٩، وحتى بعد هذا التاريخ، بمراحل اكثر اثارة للياس من دون ان تهتز ثقتهم بانفسهم وبالمستقبل وحتى بالكثير من زعمائهم.

فرنجية

تقي الدين

مسرّة

اعادة الحرب؟

في ضوء ما تقدم، هل يمكن ان يعيش اللبنانيون تجربة حرب اخرى؟ في تقدير فرنجية ثمة محاولات مستمرة من السلطة لاعادة احياء الخلافات بين اللبنانيين. وقد شهدنا قسما منها، وابرزها من حيث الرمزية التظاهرة المسلحة للأحباش. لكن المجتمع الاهلي في لبنان في مكان آخر كليا. كما ان اللبنانيين كشعب استخلصوا العبر من الحرب. من هنا شعوري ان ثمة صعوبة كي تعود السلطة وتجرنا الى صراع أهلي".

رغم وجود مسلمات وطنية اساسية لدى اللبنانيين اليوم، فان عناوين كثيرة تتعلق ببناء الدولة والنظام ما زالت خلافية، وهي تمتد من النظرة الى الاقتصاد في البلد مرورا بالثقافة والتربية والتعليم وصولا الى السياسات الزمنية، بحسب تقي الدين، "ذلك ان نظام ما بعد الطائف قام على منطق البنية السياسية المذهبية وليس الطائفية وحسب". وفي رأيه ان التسوية الوطنية ادت الى تكوين قاعدة شعبية واسعة للنظام السياسي من كل الطوائف "لكن ذلك لا يلغي وجود بعض القوى والاتجاهات السياسية التي هي خارج هذا النظام وخارج هذه التسوية، مما قد يوحي ان تلك القوى تقف عملياً عند خطاب الحرب وطروحاتها. وذلك لا يعني في الضرورة ان الحرب يمكن ان تتجدد في لبنان، لان التازم السياسي والانقسام الوطني اللذين انتجا الحرب هما ثمرة استقطاب حاد وواسع بين قوى التغيير وقوى المحافظة. والجبهتان كانتا قويتين وتمثلان تياراً واسعاً من الراي السياسي والثقافي والفكري، الامر الذي ليس قائماً في الحال الراهنة. كما ان العناصر الاقليمية التي كانت في اساس الانقسام السياسي وكانت لها قوى كبيرة على الارض اللبنانية لم تعد موجودة في الشكل الذي كانت فيه من قبل. لهذا يمكن القول ان بعض البنات الحرب ما زالت "شغّالة" في المجتمع، من دون ان يعني ذلك ان احتمال الحرب ممكن من حيث القوى والوسائل المادية".

المناعة اللبنانية

كيف يصون اللبنانيون السلم الاهلي ومناعتهم تجاه الحرب؟

في راي الدكتور مسرّة ان الذاكرة الجماعية النابعة من التجربة الاليمة والغنية قواسها قوة قومية جامعة وصدمة نفسية هي المدخل لتنمية مناعة المجتمع اللبناني تجاه انقسامات الداخل وتداخلات الخارج، اذ يخشى ان لا تستفيد الاجيال المقبلة من التجربة، خصوصاً ان العشرينية الحالية (٢٠٠٠—٢٠٤٠) هي مرحلة محورية لبناء ثقافة ميثاق العيش المشترك لمصلحة اجيال لبنان وشبابه. من هنا ضرورة إقامة نصب تذكارية وطقوس ذاكرة تعبّر عن المعاناة الانسانية. كنصب تذكاري للمخطوفين من كل الطوائف والمناطق والانتماءات، وللرجل الذي كان يحمل ربطة خبز واصابه القناص ونشرت صورته "النهار"، ولبوسطة التلامذة التي كانت تعبر محلة المتحف فأصابتها احدى القذائف، ولربى ومايا اللتين غرقتا في البحر، وايجاد اليافطة التي وقعها آلاف اللبنانيين ضد الحرب ويقتضي وضعها في متحف لبنان "صحيح يجب ان ننسى الاحقاد والضغائن والصراعات، لكن يجب ان نتذكر ايضاً". ويشير مسرّة الى ان النظام السياسي اللبناني في اطره الاساسية ليس قضية داخلية، بل ثمرة معضلة ادارة التنوّع في المنطقة. ويرى ان معضلة لبنان الكبرى ثقافية وتربوية لذا فإن تجربة ١٩٧٥ – ١٩٨٩ يتبغي الا تمر كأنها مجرد فاصل استراحة في مسرحية مأسوية، وعلى جميع اللبنانيين ان يعملوا على كل المستويات لتثمير التجربة في ذاكرة الاجيال المقبلة بحيث. يصبح المجتمع اللبناني اشدّ مناعة، بفضل اكتساب ثقافة السلم الاهلي الدائم".

آلين فرح

جمعية العناية بأطفال الحرب

اثر الزيارة التي قام بها الرئيس الفرنسي جاك شيراك الى لبنان بعد حوادث قانا في نيسان ١٩٩٦، وفي اطار المساعدات الانسانية للاطفال ضحايا الحرب، انشئت ثلاثة مراكز للاستشارات الطبية النفسية في بيروت والنبطية وصور، وفلك بالتنسيق بين الحكومة اللبنانية عبر وزارة الصحة، التي ساهمت في تأمين عمل المراكز، والحكومة الفرنسية عبر وزارة الخارجية التي عملت على تمويل المشروع منذ كانون الاول ١٩٩٦ ولغاية تشرين الثاني ١٩٩٨. وفي آب ١٩٩٩ تأسست جمعية العناية باطفال الحرب لمتابعة اعمال المراكز وتشغيلها.

مجموعة من الاختصاصيين تعمل في المراكز الثلاثة في الطب النفسي، وعلم النفس العيادي، وعلم النفس المدرسي، وتقويم النطق، إضافة الى مساعدة اجتماعية وسكرتيرة. وتتم المعاينات مجاناً.

تقول الدكتورة في علم النفس العيادي ورئيسة الجمعية ميرنا غنّاجة "ان اطفال اليوم يعيشون في جو مشحون بحوادث الحروب التي يصنعها الكبار، مع ما يرافق ذلك من تأثيرات سلبية على الصعد المختلفة: الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والنفسية، علماً انه لم يتم التطرق الى العوامل المؤثرة على نفسية الطفل في الحرب". لذا تعتبر غناجة اهداف هذه المراكز تتلخّص في: المتابعة النفسية – العلاجية للاطفال الذين هم ضحايا اضطرابات شتى، تنظيم دورات في الاطار التثقيفي – النفسي للعاملين في المجال التربوي والمدرسي، انشاء ما يسمى "مجموعات التعبير" لمساعدة الاطفال على اظهار معاناتهم عبر وسائل عدة. وتورد غنّاجة للتدليل على ما تقول المثل الآتي: "فاديا ابنة الحادية عشرة، فقدت أمها وشقيقين وشقيقتين في مجزرة قانا، وكانت تعاني التهابات ناجمة عن حروق في جسمها. كانت انطوائية لا تستطيع ان تتكلم على واقعها او ان تعبّر عن مشاعرها. في المقابلة الاولى اكتفت برسم بيت كبير تحوطه الازهار والاشجار. بعد جلسات عدّة في مجموعات التعبير، رسمت للمرة الاولى اشخاصاً في عرس، وبعد اربعة اشهر عبّرت فاديا عبر الرسم عن واقع المجزرة التي عاشتها: "الطيران يقصف قانا، الولد الصغير الموجود داخل البيت قُطع رأسه، والولد الآخر فقد يده"، انه يصرخ، اما خارج البيت، فكانت المرأة تحمل ابنها وترضعه. مات الابن وفقدت المرأة راسها". بعد هذا التعليق روت فاديا قصّتها لاصدقائها. ثم تخلّت عن الرسم لرفاقها وبدأت تلعب معهم بـ"الليغو"، فبنوا قصوراً تحوطها جدران عالية. وتطوّرت الامور حتى وصلت الى حالة من العدوانية، فتشاجروا وتضاربوا ودمّر كل واحد منهم منزل الآخر. ولم يكتفوا بذلك، اذ بنى كل واحد مقبرة ودفن فيها خصمه. صدمتني حدّة العنف ضمن اللعبة، ولكنّي كاختصاصية نفسية ادركت ان لهذا العنف ايجابياته، اذ سمح للاطفال بتجاوز الصدمة، واستطاعوا التكلم على الهجزرة والتعبير عن الالم الشديد من جراحها". تعتبر غناجة بعد معاينتها عدداً من اطفال الحرب ان كثراً من الذين وُلدوا ونشأوا اثناء الحرب يعانون اليوم مشاكل عدة ومنوعة ناتجة منها، "لذا على المسؤولين والخبراء بذل جهود مكثفة لبناء طفولة سليمة".